

تحليلات تربوية من سوسولوجيا ابن خلدون.

الدكتور الأخضر شريط

جامعة الجزائر.

الملخص:

إن الغرض من هذه البحث هو إبراز مالتدريب التربوي من أثار على النظام التربوي ومنه على التحصيل المدرسي وكذا على سائر المنظومة التربوية اعتمادا على تحليلات من سوسولوجيا ابن خلدون. ولكن هذه الدراسات لربما وجدت من يتناولها من الباحثين وهي دراسات في غاية الأهمية غير أن المؤكد أن الدراسة التي ستكشف النقاب على أثر كل ذلك على الأجيال في اعتقادنا لم تعرف بعد الشروق، وهي المغامرة التي سنحوضها لأول مرة وهذا يعني أن الاهتمام بهذا النوع من الدراسات قليل في عالمنا المعاصر لسبب بسيط هو أن تحقق هذا الانعكاس هو مجرد تخمينات يخشى أن تصبح من التنبؤات الظنية. ولسبب آخر هو أن العامل الزمني يقف مصادما هذا الأثر.

إننا في هذا البحث نوثر المنهج التحليلي المقارن على المناهج المعروفة في مجالات التربية وإن كنا لا نستغني عنها كلية.ولسوف نأخذ من حين لآخر بنتائج الدراسات السوسولوجية المتخصصة باعتبار أن مجالات بحثنا هذا يجلس بين علم النفس التربوي وعلم الاجتماع. من جهة ومن جهة أخرى فهو يعتمد أساسا على الاستقراء . والله الموفق لما فيه خير البلاد والعباد.

أولا: في المفهوم والتعريف بالعنف التربوي:

الحقيقة إذا عدنا إلى المفهوم أي مفهوم العنف بنحده متعدد المعاني وذلك بحسب التوظيفات التي تتم له من قبل أصحابه. ولكن الكل يتفق على أنه سلوك هيجاني أي سلوك صادر عن الغريزة في مقابل ما يمليه العقل من سلوكات صادرة عنه. إن الدراسات التي قامت في التربية- حيث أن مفهوم التربية هو نظرية في التعليم فرضت نفسها ابتداء من القرن 19 كعلم تربية أو تعليمية didactique تجريبية(1)- والتكوين أي في المدرسة كانت تملي الحقائق الميتافيزيقية إملاء ومنه فإن المنهج المتبع في ذلك كان ينحو نحوها. أي إن العلاقة الكلاسيكية التي كانت قائمة بين المربي والمتعلم طالما كانت متمسكة بإملاءات من هذا القبيل. بمعنى أن هذه العلاقة كانت قائمة على عنصري التلقي و التحفيظ. وهي هنا غالبا ما تأتي في شكل وصية. وعليه فإن أحسن مثال في ذلك "رسالة أيها الولد المحب" لأبي حامد الغزالي(1) وهي عبارة عن وصية في التربية وعندما نقول وصية أي وجب الأخذ بها دونما جدال ولا نقاش وكان بإمكاننا أن نتصور العلاقة القائمة بين العنصرين الآتفي الذكر.

فمن دون شك هي علاقة ود ووثام كامل أو هي علاقة تنافر وتباعد: بمعنى أنه في حالة ما إذا تغلب الإملاء على المزاج فإنه يحصل تعلم قسري. و إذا ما تغلب مزاج على إملاء فإنه يحدث قسرا واعتداء على هذا المزاج وهي الحالة التي تداركها ابن خلدون(2) في دراسته للمدرسة باعتبارها الخلية الأولى في المجتمع وتفطن من خلال ذلك إلى دراسة المنهج أو الطريقة المتبعة في عملية التعلم ومن خلال ذلك كله راح يدرس الأثر الذي يتركه العنف في العملية التربوية أولا على الذات المتعلمة. وثانيا مدى تأثير ذلك على المدرسة ومن ثمة منه تأثير ذلك على المجتمع. فيا ترى إلى أي مدى وفق في ذلك؟ وهو ما سنحاول الإجابة عنه في هذه الدراسة المتواضعة .

أولا نجد أن بن خلدون يحدد لنا مدى تأثير استعمال العنف في العملية التربوية وكيف أن سلبياته تطغى على إيجابياته بل ولا تكاد هذه الأخيرة تبين. يقول بهذا الصدد: "وذلك أن إرهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم، سيما في أصاغر الولد، لأنه من سوء الملكة"(3).

ومن هذا النص يتبين أن استعمال العنف له نتائج وخيمة تتمثل في أن العنف مضر بالمتعلم. وحسبه أيضا فإن تأثير خطورته أشد ما يكون على المتعلمين الصغار. ويرى هنا بأن الانعكاس سلمي جدا بحيث يبرره بأنه من سوء الملكة أي أن تأثير خطير جدا على التحصيل المدرسي كما نقول نحن اليوم بلغتنا .

ويدرس بن خلدون مدى تأثير استعمال العنف في المدرسة فيجد أن له تأثيرات كثيرة:

أولا : على نفسية المتعلم:

فاستعماله التضيق في مساحة حرية النفس، ومن ثمة في أعماقها هو حد من نشاطها، الشيء الذي ييث فيها الكسل والخمول فتصبح نفس تعاني من الركود والجمود. زيادة على أنها تصاب بأفات أخلاقية كافة الكذب والخبث.

وهو يحدد السبب من وراء ذلك: فالعنف يولد الخوف لأنه قسر على الذات المتعلمة، وهو بالتالي حالة تصبح فيها هذه الذات المتعلمة متظاهرة بغير ما في ضميرها نتيجة للخوف من استعمال العنف . وهي الذات المتعلمة حينئذ عرضة للمكر والخديعة. وهما صفتان خلقيتان ذميتان في الإنسان. وجملة القول أن استعمال العنف في العملية التربوية هو جني على الذات المتعلمة للأسباب التالية:

-العنف قضاء على حرية النفس المتعلمة ولا تعلم بدون حرية.

-العنف إفساد للذات المتعلمة لأن نفي للحرية وتترتب عنه صفات عالقة بباطن هذه الذات المتعلمة كالكذب والخبث وصفات ذات تأثير جذبي لهذه الذات كذلك المتعلقة بالبراني لهذه الذات ومن ذلك المكر والخديعة. ومن هذا المعنى يقول بن خلدون : " ومن كان مرثاه بالعسف والقهر من المتعلمين أو المماليك أو الخدم، سطا به القهر وضيق على النفس قي انبساطها، وذهب بنشاطها ودعاه إلى الكسل وحمل على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما في ضميره ،خوفا من انبساط الأيدي بالقهر عليه وعلمه المكر والخديعة لذلك (4).

وثانيا: على المجتمع.

إن بن خلدون يدرس انعكاس ذلك كله على الجانب الاجتماعي أي يدرس النتائج التي نتحصل عليها من عملية تربوية مقامة على استخدام العنف في المدرسة وهو يحصرها في التالي:

- أن العملية هذه تشيد عادة وأخلاقا، باعتبار أن علاقات الفرد مبروطة إلى المجتمع، مما يفقد هذا الفرد خصوصياته الاجتماعية فيصبح إنسان غير متمدن ولا متحضر.

ولا يقتصر الحال عند هذا الوضع بل إن العنف - يقول لنا بن خلدون - يجعل الفرد المترقي يفقد كل ما هو اجتماعي فيه من حيث فقدانه "الحمية والمدافعة عن نفسه" بمعنى أنه يفقد الخاصية الاجتماعية تلك الخاصة التي بها يشيد الفرد علاقاته الاجتماعية، وبعبارة أخرى فإن الفرد يفقد خاصية التحول الاجتماعي التي من خلالها يتحول الإنسان من مجرد فرد إلى جموع أفراد، أي: أنه يفقد صفات الشخص فيه، ويصبح عالة على المجتمع.

يقول ابن خلدون في هذا الباب: " وصارت له هذه عادة وخلقا ، فسدت معاني الإنسانية التي له من حيث الاجتماع والتمدن وهي الحمية والمدافعة عن نفسه أو منزله. وصار عيالا على غيره في ذلك"(5).

ولا يتوقف الأمر هذا أي أمر التأثير عند هذا الحد بل يتمادى في تمزيق العلاقات الاجتماعية لهذا الفرد وذلك بسبب انقباض النفس عن الهفو إلى أغراضها وأهدافها.

والنتيجة التي يتوصل إليها ابن خلدون في ذلك أي في تمادي التأثير الجذبي الطردي-نتيجة استخدام العنف في المدرسة وفي العملية التربوية - للنفس الإنسانية أنها تنحط عما يرسم لها المجتمع وترتكس -حسب تعبيره-وتعود إلى أسفل السافلين .

ومن ذلك فإن العنف في العملية التربوية ذا مخاطر جمة. يأتي في أعظمها الارتكاس. وهو هنا العودة بالمجتمع إلى مرحلة ما قبل البداوة أي إلى مرحلة المجتمع الذي يكون مجموع شتات أفراد أو إلى مرحلة تجمع أفراد أي 1+1+1+1...= مجموع أفراد أي الأفراد الذين لا تربط بينهم أواصر العصبية ولا أي نوع آخر من العلاقات الاجتماعية.

يقول في هذا المعنى: " بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل، فانقبضت عن غاياتها ومدى إنسانيتها فارتكس وعاد في أسفل السافلين(6).

ثالثا: تأثير العنف المدرسي على الدولة وعلى الأمة.

ينتقل بنا ابن خلدون إلى مدى تأثير العنف الذي يسميه هنا القهر على الأمة ومنه على الدولة، وعموما على الواقع السياسي وحسبه فالأمة التي أقامت بناءاتها التربوية على العنف، ستجد له ظلال على واقعها السياسي. فينتشر هذا الورم الخبيث في الأمة ويسري في أخلاقها وفي سلوكاتها كما سبق وأن فصلنا في ذلك ، وحسبه أن هذا القانون من الشاهد التاريخي للأمم يقول: وهكذا وقع لكل أمة حصلت في قبضة القهر ونال منها العسف، واعتبره في كل من يملك أمره عليه. ولا تكون الملكة الكافلة به رفيقة به . وتجذ ذلك فيهم استقراراً".(7).

ثم يضرب لنا أمثلة من هذا الشاهد التاريخي على حال هذا النوع من الأمم يقول: " وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من خلق السوء حتى أنهم يوصفون في كل أفق وعصر بالخرج، ومعناه في الاصطلاح المشهور التخابث والكيد، وسببه ما قلناه. "(8) ويزيد في استدعاء الأدلة والحجج فيجده في المتوارث من القول فحسبه " فينبغي للمعلم -والقول لبن خلدون - في متعلّمه والوالد في ولده أن لا يستبدوا عليهم في التأديب. وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه ، الذي ألفه في حكم المعلمين والمتعلمين : " لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيد في ضربهم إذا احتاجوا إليه على ثلاثة أسواط شيئا ". ويمكن اعتبار الحكمة التي نطق بها عمر بن الخطاب -حسبه بيان ناصع وموجه حكيم لألا يستعمل الإنسان العنف في العملية التربوية يقول بهذا الصدد: "ومن كلام عمر رضي الله عنه: " من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله " حرصا على صون النفوس عن مذلة التأديب، وعلمنا بأن المقدار الذي عينه الشرع لذلك أملك له ، ن فإنه أعلم بمصلحته. "(9)

ومن هنا فإن ابن خلدون يستند في تحليله لاستخدام العنف في العلية التربوية إلى جملة من المعطيات تأتي في مقدمتها ما يمليه الواقع من ضرورات أو من موجبات تقتضيها الحالة التي لا تتطلب استخدام العنف. وهو بهذا يجعل من الواقع من أهم سنداته كما أن التحليل العميق لأغوار أنفس وكيف تتأثر بالعنف ضمن هذه الواقعية وكيف يتم تأثير ذلك على الجانب الاجتماعي ومن هذا الأخير على الجانب حتى السياسي، يدل دلالة قاطعة على أنه(أي ابن خلدون) يأخذ بأيدينا نحو الواقعية من جهة، ومن جهة أخرى، فإن صبغة العقل هي أهم ما يميز تحليلاته. ومن هنا فإنه ينهج النهج الواقعي العقلي .

وكل ذلك نلمسه من اعتماده على جملة من الحجج وعلى جملة من الأدلة كي يثبت بها آراءه. تأتي في مقدمة كل تلك الحجج الحجة التي يستند فيها إلى الواقع والمتمثلة في أن استخدام العنف لاسيما مع الصغر أولا: مضر بالمتعلم وثانيا: لأنه "من سوء الملكة" أي من سوء التدبير والحكمة. ومن هذه المقدمة والتي هي عبارة عن مركب، يسترسل من خلالها في تحليل ما يترتب عن مخالفة هذه القاعدة من نتائج. وهذه التراتيب يصيغها كحلقات متتالية تأخذ إحداها الأخرى وكأنه يشعرنا أن الأمر لا يقف عند حد ما، بل يتجدد إلى أبعد الحدود. وبعبارة أخرى إنه يراه من التأثير الذي يؤثر على النفس إلى تأثيره على الاجتماعي ومن هذا الأخير على السياسي. وكلها تبين بجلاء النفحة المنطقية في التحليل مما يدل دلالة قاطعة على أنه يستخدم الاستدلال المنطقي: وكأنه يقول في من الكل في عبارته "وذلك أن إرهاف الحد في التعليم مضر بالمتعلم..." وهي مقدمة كبرى إلى الجزء: -النتيجة - أي الأثر السياسي باعتبار أن الإنسان مدني عنده بالطبع.

وبعد كل من الأدلة العقلية والمنطقية لتثبيت آرائه فإنه يستعين بحجج وشواهد أخرى وهي من مثل الكلام المتوارث من الحكم - كما مر معنا ومن مثل الأمثلة على أمم من التاريخ وهلم جرى.

وهذا النوع من الحجج إنما هي من الحجج التاريخية وهي أيضا من الحجج النقلية ويأتي بها كشواهد على مدى صدق آرائه التربوية وعن مدى ترابط التربوي مع الاجتماعي. وهو بهذا يبرز كمنظر تربوي وكمنظر اجتماعي وإلى أنه منظر سياسي.

لكن ما عسانا نقول عن الحجج التي تنوعت بين الواقعي والمنطقي (العقلي) -لا سيما إذا علمنا أن : " كل ماهو عقلي هو واقعي وان كل ماهو واقعي هو عقلي " (10) كما يقول هيغل، ج. (Hegel, G) 1831-177.

صحيح أن الواقع يؤكد أن مسألة العنف المدرسي أو التربوي تؤدي إلى نتائج ذات أبعاد خطيرة، وصحيح أيضا أن الفردي مربوط إلى الاجتماعي وهذا الأخير يصنع السياسي إلا أن علم النفس الاجتماعي يؤكد على مسألة نمو الشخصية التي تتقلب ضمن أطوار اجتماعية تتفاوت فيها التأثيرات البيئية من بيئة إلى أخرى من جهة، ومن جهة أخرى فإن الشخصية هي الصورة المنظمة المتكاملة التي يشعر فيها الفرد بتميزه عن الآخرين. ومنه فإن مقولة أن استخدام العنف في عملية التعلم في الصغر تتلف شخصية الفرد إتلافا غير صحيحة ، وعليه فإن الشخصية هذه يمكن الاستفادة منها إذا ما لم نغال في استعمال العنف معها سيما إبان المراحل الأولى لنموها. ومنه فإن علم النفس السوسولوجي المعاصر يؤكد بهذا الشأن على أن شخصية هذا المتعلم لا بد من توجيه رغباتها المتعددة -حسب ماكدوغال-(11) وضبطها والأخذ بعين الاعتبار كل ما يلزم من مقوماتها حتى تنتج سلوكيات اجتماعية تجعل عملية التبادل النفسي الاجتماعي متبادلة ما بين الفرد والمجتمع من جهة، ومن جهة أخرى تجعل هذا الأخير يمثل لجملة من التمثيلات السياسية ويستجيب لها. والعكس صحيح. حسب معطيات علم الاجتماع السياسي لأن كل ما ينتجه المجتمع له امتداداته السياسية سواء تمكن الفرد من زرع منتجه الثقافي أم لم يتمكن.

ثبت المراجع

1. أنظر رسالة أبيها الولد المحب لأبي حامد الغزالي
2. عبد الرحمن بن خلدون صاحب كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر وهو كتاب ضخم يقع في سبعة مجلدات وأعظم أجزاءه وأشهرها الكتاب الأول المسمى "مقدمة بن خلدون".
3. عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982ص1042
4. المصدر السابق نفسه ص 1042
5. نفسه ص1043
6. نفسه ص1043
7. المصدر السابق نفسه ص1043
8. المصدر السابق نفسه ص1043
9. المصدر السابق نفسه ص1043
10. أنظرHégel ,(F) Phénoménologie de l'esprit
11. صاحب تعدد الرغبات أو الغرائز ،حيث درسها ووجد أن الإنسان به أكثر من 11 رغبة أو غريزة.